وهو اللبلاب اهـ . والاسم تشبيه بعصابة الرأس لأنه يلتوى على غرارها

العَطفُ : نبات يلتوى على الشجر ، لا ورق له ولا أفنان

قال ابن بَرّى : العطَفة : اللبلاب ، سمى بذلك لتلويه على الشجر

العِقدُ : شجر ورقه يلحم الجراح (التاج)

فمن هذا يظهر لك أن العربي لم يجر فى وضع الأسماء على غير قاعدته ، وإنما كانت قاعدته أن يلحظ فى الشىء صفة ، فيرجع إلى لغته حتى يقع على الكلمة التى تؤدى معنى تلك الصفة ثم يصوغ منها الاسم على وزن يلذ فى أذنه جرْسُه

على أن لنا فى لغتنا العربية من الأصول ما يقابل كل الأصول التى نحت منها الفرنجة أسماء الحيوان والنبات يونانية كانت أم لاتينية . فاذا استعنا بالصيغ السماعية على ما بين أيدينا من الصيغ القياسية ، انفتح أمامنا الباب المغلق ، وخرجنا إلى الرحاب الواسعة وحافظنا على سلامة اللغة أن يطيح بها التقريب السقيم ، أو يتلاعب بها من ليس فى مقدورهم تفهم أصولها وأساليبها

والسبيل المعقول هو أن نكب على جمع أسماء النبات والحيوان ثم نعرف من أية الصيغ وردت ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملا بقدر الامكان ، ثم نجيز قياسها والصوغ عليها فى أسماء الحيوان والنبات . فاننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التى جرى عليها العرب مادمنا سنراعى شرط لحظِ الصفة في المسمى على ما عمل أسلافنا طيب الله ثراهم ، فان تسمحهم في هذا الشأن ، يضطرنا إلى القول مع الأئمة الذين قالوا من قبل « إن كلاماً قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب »

وإن لغتنا لواسعة وإن لنا فى أقيستها وصيغها التى وردت على لسان العرب ، ما يكفل لنا وضع الأسماء الجديدة التى يظن البعض أن وضعها من المستحيلات . وإني جرياً على القاعدة التى شرحتها هنا ، لقمين بأن أضع اسماً لأى نبات أو حيوان لا اسم له فى العربية ، مصوغاً على ما ورد فى كلام العرب

وقد جمعت حتى الآن من أسماء النبات أكثر من ألفى اسم ، وسأضع فى هذا الموضوع رسالة آمل أن تكون مبدأ عهد جديد في صوغ أسماء عربية للحيوان والنبات

اسماعيل مظهر

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢ —

نسبه ومولده :

الرافعى سورى الأصل ، مصرى المولد ، إسلامي الوطن : فأسرته من (طرابلس الشام) ، ضم ثراها عظام أجداده ، ويعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بنى عمه وخئولته منذ أكثر من قرن ؛ وهو فى وطنيته (مسلم) : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : « وطنى . . . » فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية... » أو « الوطنية السورية ... » أو « الوطنية العراقية . . . » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه دارى من هذا البلد ، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذى يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم ، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامى الأكبر ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد

وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعى وبعض الأدباء فى مصر ، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه فى وطنيته ، أعنى مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه فى ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ، ثم يقول : أفتراهم يتهموننى فى مصريتى لأننى فى زعمهم غير مصرى وفى مصر مولدى وفى أرضها رفات أبى وأمي وجدى ، أم كل عيبى عندهم فى الوطنية أننى صريح النسب ؟ . . . وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟

ـمن أين مَـقْـدمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

* * *

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي ـلكبير المتوفى سـنة ١٢٣٠ ﻫ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه ـمر بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، ـ نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين ، ـامنهم إلا له تاريخ مشهود وجهاد مشكور ومسجد ومزار .

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ ـمد الطاهر الرافعي ، قدمها في سنة ١٢٤٣ ﻫ (قريب من سنة ١٨٢ م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان ؛ ـأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الامام أبي حنيفة في ـقضاء الشرعي بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غـير فتاة ـغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده ؛ ـلكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة [1] ، فتوافد إخوته ـأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة ـتي آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضياً ـ مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى ـن تكون مقصورة على آل الرافعي ؛ وقد تنبه اللورد كرومر ـ هـذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية ـالإنجليزية .

وقد تخرج في درس الشيخ محـمد الطاهر وأخيـه الشيخ ـبد القادر الرافعي أكثرُ علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في ـصر . ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوي ـلكبير والشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق

(١) العجب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس في مصر ـحد من ولده ، ومع ذلك تستطيع أن تحصي من آل الرافعي في مصر الآن ـيزيد على ستمائة . وأسرة الرافعي كثيرة الولد ، فما منهم إلا له ثمانية أولاد ـ عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ؛ وحسبك أن تعلم أن أولاد أحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعي (والد المترجم) يبلغون الآن واحدا ـسبعين ولدا وبنتا ، وأن الشيخ عبد الرازق هذا هو واحد من أحد عشر ـا تولوا كلهم وظائف عالية في القضاء الشرعي ؛ وقد مات المرحوم مصطفى ـادق وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولد له منها أحد ـشر ولدا وفتاة افترط منهم واحدة في سنتها الأولى وخلف عشرة يكون ـده . . . ! !

ولما توفى المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنفية في مصر يومئـذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي ، فدعاه الخديو عباس إلى تولي وظيفة الافتاء ، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرُّج وخشية ، فلم يجد في نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرُّجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى في شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل في الخصومات بين الناس . . . فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفي نفسه همّ ، وهو يدعو الله ألا يئول إليه هذا الأمر ضناً بدينـه ومروءته . . . وتمت مراسيم التولية ، وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتي الدولة) ثم نزل إلى عربته فركبها عائداً الى داره وهو يتمتم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الحوذي ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فاذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضي في شئون العباد . . . واستجاب الله دعاءه . . . !

وأبو الأستاذ الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد الرزاق الرافعي ، كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعي . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرزاق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفي طنطا كانت إقامته الى آخر أيامه ، وفيهـا مات ودُفن ، وفيها أقام مصطفى صادق وإخوته من بعد أبيهم في بيته ، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً ، لايعرفون لهم وطناً غيرها ولا يبغون عنها حولا . ولقد حاولت وزارة الحقانية أكثر من مرة أن تنقل مصطفى إلى غير طنطا فكان يسعى سعيه لالغاء هـذا النقل ، حتى لا يفارق البلد الذى فيه وفاة أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوى . . . [1]

(١) كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية ربما استطعت أن أجلو منها شيئاً على قراء الرسالة في غير هذا العدد . وكان الرافعي إذا أم مسجد السيد البدوى للصلاة اتخذ مجلسه تحت القبة فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وهو يهتز وعيناه مسبلتان ؛ فاذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح يده على صدره ، ثم يمضي وما تزال شفتاه تتحركان بكلام ... وكان بيت آل الرافعي القديم في طنطا ، قريباً من مسجد السيد البدوى ، في حارة سيدي سالم ، وهي حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوى أوي إليها أول ماهبط إلى طنطا منذ ألف سنة ؛ وكانت إلي عهد قريب هي مجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوى واللائذين به .

وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة فى الدين وشدة في الحق ، مابرح يذكرهما له مع الاعجاب معاصروه من شيوخ طنطا .

حدثني نسيب قال : « كنت غلاماً حدثا ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعي من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً فى متجر جاره وصديقه المرحوم الحاج حسن بدوى القطاطرى ، فى شارع درب الأثر ، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ فى عصر يوم من رمضان ، كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمر به رجل ينفث الدخان من فه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعا الشرطى أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره فى رمضان فى شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاعة الشفعاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم فى (زفّة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ حده بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ولا يجيزه ، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضى المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام »

وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون وأحسب أن هناك صلةً مابين أسرة الرافعى فى طرابلس الشام وبين الامام الرافعي المشهور صاحب الشافعي ؛ وقد سألت المرحوم الأستاذ الرافعى مرة عن هذه الصلة ، فقال : لا أدري ، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول من عُرف منا بهذا الاسم شيخ من آبائى كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر فى مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعى تشبيهاً له بالامام الكبير الشيخ محمود الرافعى صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم .

والأستاذ الرافعي حنفى المذهب كسائر أسرته ، ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يعتدّ به ويأخذ برأيه فى كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كأبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخى ماتزال معروفة هناك ، على أنه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي . وكانت إقامته فى (بهتيم) من قري مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها وُلد الأستاذ مصطفي صادق الرافعى فى يناير من سنة ١٨٨٠ م [١] ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى بيت أبيه .

وكانت أم الرافعي تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرّها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس ، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا ، وقد شيّعها الرافعي على عنقه إلى مقرها !

* * *

علم وثقافة :

لأسرة الرافعي ثقافة أسميها كما يسميها الأستاذ اسماعيل مظهر (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشىء منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين ، وتجعل منه خلفاً لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه . والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [٢]

وعلى هذه النشأة نشأ المرحوم مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيراً من أخبار السلف ، فلم يدخل المدارس المدنيـة إلا بعد

---

(١) لا نعرف للرافعى (شهادة ميـلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد الموجودة بملف خدمته فى وزارة الحقانية هى لأخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وقد كنت أحسب مولده فى سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، وبأحدهما أخذ الأستاذ الزيات فى مقالته عنه بالرسالة غداة نعيه . ثم وقعت لي بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يثبت فيها أن تاريخ ميلاده فى يناير سنة ١٨٨٠ فبها أخذت هنا .

(٢) يتخذ الرافعى فى بيته امرأة قارئة حافظة ؛ تقرأ كل يوم ماتيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن فى وقت فراغهن من المدرسة ، وتقيم السنتهن في تلاوته .

ياوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقضى سنة فى مدرسة دمنهور بتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى رسة المنصورة الأميرية[1] ، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنّه ئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل ؛ ومن زملائه فى رسة الابتدائية الأستاذ الجليل منصور فهمي بك ، ونيازى باشا حسبه قال لى : إن منهم كذلك الشارع القانونى الكبير عبد الحميد ى باشا

ومن أساتذته فى المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ دى خليل المفتش بوزارة المعارف ، وكان يدرس له العربيـة ؛ ن الرافعي ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة ان الأستاذ مهدى يسخر منه قائلا : « يا مصطفى ، لا أحسب دا غيرى وغير الله يقرأ خطك ! » وقد ظل خط الأستاذ فعى رديئاً إلى آخر أيامه ، ولكن قراء خطه قد زادوا اثنين : سعيد العريان والعمال فى مطبعة الرسالة ...

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء المرحوم الرافعي كشف عن شيء من خلقه : فقد صحبنى مرة منذ عامين إلى نادي العلوم ، وما أكثر ما كان يصحبنى إليـه إذا هبط القاهرة . لس وجلست معه فى جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال ليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقي نقيب المعلمين السابق ساً إلى جانب الأستاذ الرافعي يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم ستاذ الرافعي حديث محدثه مكتوباً فى ورقة ، وبينما نحن كذلك لحديث يتشعب شعبه ويتسرب فى مساربه ، والجمع حولنا مرهف ذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعي واقفاً ، بهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدى خليل يبدو من طوله وجسامته كتمثال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الرافعي يطأطئ وينحنى يهم أن يقبل يده ؛ ثم عاد إلى مجلسه فال علىّ يقول فى س : « هـذا أستاذى مهدى خليل . . . » وفى صوته رنة هى أقرب إلى صوت طفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يُسرّ إليه ... ومضى الأستاذ مهدى غير عابئ ولا ملتفت بما فيه من طبيعة المرح وعادة الاغضاء ، وأحسبه لم يعن بالسؤال عن هذا الزائر الذى نهض له أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم

* * *

وفى السنة التى نال فيها الرافعى الشهادة الابتدائية — وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية — أصابه مرض مشف أثبته في فراشه أشهراً — وأحسبه كان التيفويد — فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً كان حبسة في صوته ووقراً في أذنيه من بعد .

وأحس الرافعى آثار هذا الداء يوقر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسمعيه عاما بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو . . . حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ، ثم تبعتها الأخرى ، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئا مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فعقد عقدة فى حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام ، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام في وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ظلت فى حلقه حبسة تجعل فى صوته رنينا أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة . . .

وكانت بوادر هذه العلة التى أصابت أذنيه هى السبب الذى قطعه عن التعليم فى المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التى أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه ، وكان هو فيها المعلم والتلميذ

وحظ الرافعى من الشهادات العلمية حظ أبيه ، فإن الشيخ عبد الرازق الرافعى على علمه وفضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية فى كثير من الأقاليم — لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف علمى بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ،

---

(١) جاء فيما كتب الأستاذ الزيات عن الرافعي أن دراسته فى المنصورة ت بمدرسة الفرير . وأحسب هذا قد جاءه من أن المرحوم الرافعي كان عرف من اللغات غير الفرنسية والعربية ؛ ولكن اللغة الأجنبية فى مدارس حكومة كانت إلى ما بعد الاحتلال بقليل هى الفرنسية ، ولم تدخلها اللغة نجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم ...

فتقدم إلى امتحانها ونالها، لغير غرض يسعى إليه إلا أن يستكمل براهينه فى جدال بعض العلماء . . .

وكان لأبى الرافعي مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نوادر كتب الفقه والدين والعربية ؛ فأكبَّ عليها مصطفى إكباب النهم على الطعام الذيّ يشتهيه ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة فى مجالسة أحد ، وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه ، وكان يحس فى نفسه نقصاً فى ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال فى ناحية ، وكان يُعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث ، وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا فى دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة فى قراءة أخبار الناس ، وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث ، وقال لنفسه : إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى فليسمعوا منى . . . وبذلك اجتمعت للرافعى كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوى الجسد الذى هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديب العربية فى غد . . . !

كانت مكتبة الرافعى فى هذه الحقبة من تاريخه ، هى دنياه التى يعيش فيها ، ناسُها ناسه ، وجوُّها جوُّه ، وأهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رُواته ، وأدباؤها سُمَّاره ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة شفاهاً ، فنشأ ذلك نشأة السلف . يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفه أفراحهم ، وتتراءى له أحلامهم ومناهم

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلا لغشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم — فان حظه من العامية المصرية كان قليلا ، وكان عليه أن يسألني أحياناً أو يسأل غيرى من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يسمع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شىء من ذلك ، وكان يمزح معى أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لى قاموس العامية . . . »

وإذ كان أبوه وأمه قريبي عهد بمنبتهما فى سورية ، وكان لم يسمع أكثر ما سمع فى طفولته إلا منهما — فان لهجته فى الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سورى ، ولكن مصطفى كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النميمة على هذا الأصل ، وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم تُجْدِ على الرافعي معرفته الفرنسية إلا قليلا أو أقلَّ من القليل ، فمنذ انتهى من المدرسة لم يجد فى نفسه إليها نزوعاً قوياً ، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار فى العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء ، ولو أنك كنت تسمعه أحياناً يأسف على هجرها ويمنى نفسه بالعودة إليها فى وقت فراغ ؛ وهيهات أن يجد الرافعى فراغا من وقته .

هذه ثقافة الرافعى وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل هذا على الدأب فى القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه كأنه من التعليم فى أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية .

وكان إذا زاره زائر فى مكتبه جلس قليلا يحيّيه ويستمع لما يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه : « تعال نقرأ . . . » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعى ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمر فى القراءة . . .

وفى القهوة ، وفى القطار ، وفى الديوان ، لا تجد الرافعى وحده إلا وفى يده كتاب . وكان فى أول عهده بالوظيفة كاتبا بمحكمة طلخا ، فكان يسافر إلى طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه فى الذهاب وفى الاياب (ملازم) من كتاب أى كتاب ليقرأها فى الطريق . وفى القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة فى خطب الامام على ، وكان لم يبلغ العشرين بعد . . . ؟!

(لها بقية) « طنطا » محمد سعيد العريان

تصويب : جاء فى الجزء الأول من هذه المقالات المنشور بالعدد ٢١١ أن الرافعى توفى صباح الاثنين ١٤ مايو، وهو خطأ صوابه الاثنين ١٠ مايو وكان يومه الأخير هو الأحد ٩ مايو سنة ١٩٣٧